

الهجمات المغولية على الشرق العربي

وموقف حماة النضالي

محمد عدنان قيطان

يبدأ تاريخ المغول فعلاً بظهور تيموجين في شرقي منغوليا عام ٦٠٣ هـ / ١٢٢٧ م وتأسيسه امبراطورية واسعة الأطراف امتد سلطانها من البحر الأصفر على المحيط الهادي الى البحر الأسود . ولذا أطلق عليه الشامان - وهو مجلس كهنوتي - اسم جنكيز خان أي الملك الأعظم . وقد منح جنكيز خان مواطنيه قانوناً عُرف باسم « الياسا » ، وبقيت « الياسا » سائدة حتى حلت الشريعة الاسلامية محلها بعد اعتناق المغول للاسلام .

وفي عهد جنكيز خان ظهر لفظ المغول علماً على الامبراطورية والأسرة الحاكمة ، واستعمل بعد ذلك اسماً للأمة . وهناك من يقول إن المغول قبيلة من التتر ، وإن لفظ التتر قد ورد في نقوش اورخون اسماً لشعب . غير أن المصادر العربية والروسية والغربية لاتفرق بين المغول والتتر ، وتكتفي بذكر لفظ التتار أو التتر مخففة ، وعلى هذا جرى أبو الفداء في تاريخه .

والمغول طبقاً للروايات الخاصة بهم شعبة من الآلوس أي مجموعة العشائر التي كوّنتها القبائل البدوية في القسم الشمالي من صحراء غوبي الواقعة في منغوليا ، ولهم لغة خاصة بهم مشوبة بالكثير من الكلمات المستمدة من اللغة السنسكريتية بحكم الجوار . وللمغولي خصائصه المعروفة «بالمغولية» كانحراف العينين وبروز عظم الوجنتين واصفرار لون البشرة ، ولكن هذه الخصائص رغم

- انتشارها لدى سكان بعض القارات كاوربا وأمريكا لا تكفي للانتماء القومي . .
بل لا بد من انتمائهم إلى الأسرة اللغوية المغولية .

ديانة المغول من البوذية

أما ديانتهم فهي شكل من أشكال البوذية ، ويطلق عليها اسم « اللامية » ، ولهم كتابان مقدسان هما : كانجور وتانجور ويعدان دعامتي المصادر اللامية . وما يزال اتباعها منتشرين حتى اليوم في التبت ، وهم يعتقدون بالتقمص ويقدمون الأرواح والجن ، كما يقدسون آلهتهم التي تنحدر على الأغلب من سلالة كهنوتية . وللامية مجلس يدعى « الشامان » وهو الذي منح جنكيز خان هذا اللقب . ويذكر السيوطي في تاريخه أنهم يسجدون للشمس ولا يحرمون شيئاً ولا يعرفون الزواج إلا سفاحاً ، وللمرأة حرية تعدد الأزواج ، وهي والرجل سواء في القتال وحسن البلاء .

وقد تفرعت دولة جنكيز خان في حياته وبعد موته إلى خمس شعب ، لكل شعبة أسرة حاكمة :

- ١ - شعبة أوكتاي أو الخانات الكبار في منطقة جونغاريا من بلاد الصين ، ولها السيادة والقيادة على سائر الشعب ، ويرأسها أصغر أبناء جنكيز خان على عادة المغول توريث الابن الأصغر وطن أبيه .
- ٢ - شعبة تولوي في منغوليا .
- ٣ - شعبة أولاد تولوي في إيران ، وهم ايلخانات إيران ، ومنهم هولكو واتباعه .
- ٤ - شعبة جوجي التي حكمت قبائل الترك في القبجاق بين بحر قزوين ونهر الفولغا .
- ٥ - شعبة جفتاي وقد حكمت بلاد ما وراء النهر .

وما يهمننا من هذه الشعب شعبة أولاد تولوي وهم الايلخانيون مغول فارس . وكلمة « ايلخان » تطلق على خان القبيلة أو الايالة ، وتدل على أن حاملها داخل في طاعة الخانات العظام وهم بمثابة الخلفاء عند المسلمين ، وربما نسبت هذه الأسرة إلى مؤسسها هولكو .

أسباب الاجتياح المغولي للشرق العربي

من الثابت تاريخياً أن هجمة المغول على بغداد جاءت في وقت كانت فيه الخلافة العباسية في طور الاحتضار ، وأم يبق من هيبتها في العيون إلا الشعار والدثار ، وكان صاحب خراسان خوارزم شاه محمد بن تكش على الرغم من تبعيته الاسمية لها يتربص بها الدوائر، ولكن نقضه لمعاهدات الصلح المبرمة مع هولاءكو وغدره برسله جعل بلاده عرضة للاجتياح حتى وصل هولاءكو الى العراق وقرع أبواب بغداد مستفيداً من وجود خليفة مستضعف لا رأي له ، ومن نزاعات مذهبية مزقت جسد الأمة ، ولم تكن سفارة ابن العلقمي وزير المستعصم بالله إلى هولاءكو إلا الشعرة التي قصمت ظهر البعير وليست السبب المباشر لاجتياح العراق كما يعتقد الكثير من قراء التاريخ .

ويمكن القول إن الفترة التي بدأ فيها المغول هجماتهم - وهي النصف الثاني من القرن السابع الهجري - قد شهدت تقلص الحكم الأيوبي عن بلاد الشام وانقراضه في مصر بعد موت الصالح نجم الدين أيوب ونهوض شجرة الدر بأعباء السلطنة فيها.. وما تبع ذلك من قيام حكم المماليك فيها . وكان أيوبيو الشام أعجز من أن يواجهوا الغزو المغولي منفردين ، فاضطروا إلى الاستنجاد بالمظفر قطز سلطان المماليك لرد الغزاة الجدد من الشرق .

تصنيف الهجمات المغولية

يمكن تصنيف الهجمات المغولية على الشرق العربي إلى ست هجمات . هي على التوالي :

- ١ - الهجوم المغولي الأول وسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .
- ٢ - الهجوم المغولي الثاني وموقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .
- ٣ - الهجوم المغولي الثالث وموقعة حمص الكبرى سنة ٦٨٠ هـ .
- ٤ - الهجوم المغولي الرابع واحتلال دمشق ٦٩٩ هـ .
- ٥ - الهجوم المغولي الخامس وموقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ .
- ٦ - الهجوم المغولي السادس أيام تيمورلنك سنة ٨٠٤ هـ .

وسوف نكتفي اليوم بالحديث عن الهجمات الخمس ونرجى البحث عن حملة
تيمورلنك إلى مناسبة أخرى .

الهجوم المغولي الأول وسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ

حاول الخليفة المستعصم بالله درء الخطر المغولي عن بغداد عقب اجتياح
هولاكو لبلاد خوارزم شاه ، فوجه وزيره ابن العلقمي للمفاوضة ، غير أن خيانة
الوزير واتفاقه السري مع هولاكو لازاحة الخليفة وقيام نظام مذهبي جديد في بغداد
تكون فيه السيادة لابن العلقمي وأشياعه كانت عاملاً مساعداً على دخول
المغول إلى بغداد وتدمير جزء كبير من معالم الحضارة فيها . وكان ابن العلقمي
قد مهد لهذا الغزو بتخفيض القوات المدافعة عن بغداد من مائة ألف مقاتل
إلى عشرة آلاف ، في حين كانت القوات المغولية عند الغزو تزيد على مائتي ألف
مقاتل . ومن الطبيعي أن تنتصر القوة على الضعف ، والكثرة على القلة ،
والباطل المجدد على الحق الأعزل . وكان ما كان من قتل ونهب وتدمير
واستباحة وهوان لم تشهده الانسانية في تاريخها القديم والوسيط ، والحديث
عنه ذو شجون ، وفي تاريخ البداية والنهاية لابن كثير تفصيل لمن أراد المزيد .

الهجوم المغولي الثاني وموقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ

استأنف المغول زحفهم المدمر بقيادة هولاكو بعد سقوط بغداد باتجاه
الأجزاء الشمالية لبلاد الشام ، وقد عقدوا تحالفات مع ملك أرمينية وملك
انطاكية الصليبي توطئة لاحتلال الشام . ولما أحاط المغول بحلب سنة ٦٥٨ هـ
أعملوا السيف في الرقاب ، والنهب في الديار ، فهرب من هرب ، وقتل من
قتل . حتى إذا طار النذير بأخبارهم إلى حماة اصطكت منها المسامع ، وبادر
أهل الحل والعقد من رجالاتها في غيبة المنصور الثاني صاحب حماة لمعالجة الموقف
واتخاذ ما يروونه صواباً لحماية المدينة وأهلها ، فوجدوا أن الحكمة تقضي
بتشكيل وفد إلى هولاكو لمقابلته في حلب واسترضائه وتسليمه مفاتيح
المدينة حقناً للدماء وطلباً للأمان . وأعلموا بذلك المنصور الثاني
وكان في دمشق يترقب أخبار المغول يوماً بعد يوم . يقول أبو الفداء في تاريخه :

ووصل كبراء حماة إلى حلب ، ومعهم مفاتيح حماة ، وحملوها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة ، وشحنة يكون عندهم . فأمنهم هولاكو ، وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجمياً كان يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال له : خسرو شاه . فقدم خسرو شاه إلى حماة وتولاها ، وأمن الرعية . وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيمانز أمير جندار ، فسلم القلعة إليه ، ودخل في طاعة التتر .

وبعد تسليم المدينة أمر هولاكو بتهديم أسوار القلعة والمدينة ، فهدمت أسوار القلعة وأحرقت مستودعات الأسلحة والذخائر « الزردخانا » وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة في القلعة بأبخس الأثمان ، وذلك تحت إشراف صاحب حمص الأشرف موسى بن إبراهيم وهو الملك الأيوبي الوحيد الذي انفرد عن أهل بيته ودان بالطاعة لهولاكو ، فاستأمره على حمص ، وكلفه تهديم الأسوار في حمص وحماة .

المدينة تحت سيطرة المغول

أما أسوار المدينة فقد قام رجل حموي ذو دهاء وغيرة ، وكان ضامن الجهة المفردة « محافظ المدينة بلغة اليوم » واسمه إبراهيم بن الافرنجية ، وأغرى خسرو شاه بالمال ، ونصحه بعدم هدم الأسوار حماية للمدينة من غارات الصليبيين المحتملة ، وخوفاً على السكان من الهجرة إلى المناطق الآمنة . فافتنع خسرو شاه وأخذ المال ، ولم يتعرض لأسوار المدينة بالخراب ، وبقيت حماة تحت حكم المغول حتى انحسار موجتهم بعد موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

ونحن لا نعلم شيئاً عن الأوضاع التي كانت تسود المدينة أبان خضوعها للسيطرة المغول قرابة تسعة شهور ، ذلك أن مؤرخي هذه الفترة - وهم معاصرون لها - كانوا يمسكون القلم عن تفصيل أحداثها ، ويجرون عليها ذيل الاغضاء لأسباب نجهلها ، وإن كنا نميل إلى القول أن المدينة قد خفضت جناح الذل من الخوف وأثرت أن تعيش آمنة على أرواح السكان وأموالهم وأعراضهم ، وكى لا يصيبها ما أصاب حلب التي رفعت لواء المقاومة بصبر وبسالة ، فكانت الضريبة فادحة ، والحديث عنها يأكل الأحاديث .

موقعة عين جالوت ٦٥٨ هـ

لم يكن المنصور الثاني في حماة يوم دخول المغول إليها ، فقد انسحب منها إلى دمشق للمساهمة في الدفاع عن كبرى حواضر العالم الاسلامي تاركاً حماة تواجه مصيرها بنفسها . وكان التجمع الأيوبي يجري على أرض برزة قرب دمشق استعداداً للمجابهة العسكرية ، فلما توالى عليهم الأخبار بسقوط المدن واحدة تلو أخرى . . وتهديم الأسوار وتدمير مستودعات الأسلحة والعتاد . . أيقنوا بعجزهم عن الدفاع . وبخاصة عندما دخل عدد من الأمراء الأيوبيين في طاعة هولاكو فوجدوا أنفسهم بين فكي كفاشة : المغول يلاحقونهم من الشمال ، والمماليك يتربصون بهم في الجنوب . ولكن بعض الشر أهون من بعض كما يقال ، فانسحبوا إلى مصر يقودهم المنصور الثاني صاحب حماة وألقوا قيادهم إلى المظفر قطز الذي أحسن استقبالهم ، ووعدهم بقتال المغول بعد أن أدرك أن الخطر جسيم ، ولا يمكن السكوت عنه ، ولا سيما بعد وصول طلائعهم إلى غزة ، وخشي أن يحدقوا به في عقر داره . وكانت الموقعة الفاصلة في عين جالوت (بين بيسان و نابلس) يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ وانجلى عن هزيمة نكراء للمغول ومقتل قائدهم كتبغا ونصر مؤزر للمماليك والقوة الأيوبية ، ثم تابعوا بعد ذلك فلول المنهزمين . وعندما دخل المظفر قطز دمشق تأكدت السلطة المملوكية على بلاد الشام ، وتقبلها السكان لاقتنائهم بضرورتها ، ولأن قدوم المماليك إلى الشام كان بمثابة تحرير وإنقاذ لا غزو أو استيلاء .

لم ينس المظفر قطز بلاء المنصور الثاني صاحب حماة وجنده البسلاء في موقعة عين جالوت فأحسن اليهم وصحبهم معه إلى دمشق ، حيث أعيد تنظيم بلاد الشام من جديد . وقد أقر المنصور الثاني على عمله في حماة وبارين ، وأعاد إليه المعرة بعد أن ظلت تابعة لحلب قرابة ثلاث وعشرين سنة . أما سلمية فقد ألحقها بأمير العرب ، ثم أذن المظفر قطز للمنصور الثاني بالعودة إلى حماة ، وكان خسرو شاه قد غادرها اثر هزيمة المغول مقتفياً آثارهم .

وما كاد المنصور الثاني يستقر في المدينة حتى نهى لمعاينة الذين تعاونوا مع المغول إبان سيطرتهم عليها فاعتقلهم جزاء خيانتهم ، وأدخل الطمأنينة إلى

النفوس بعد جائحة الفزع الأكبر ، وإشاع فيها الأمل بعد اليأس ، فما نامت المدينة إلا على أهازيج الشعراء وهينمات النواير .

معركة حمص .

غير أن الشام لم تنعم بالاستقرار شهراً أو يزيد حتى عاد المغول ثانية طلباً للثأر الذي أصابهم في عين جالوت ، وعبروا الفرات متوجهين إلى حلب في أواخر سنة ٦٥٨ هـ ودخلوا المدينة وفتكوا بأهلها على عادتهم ، في حين فرت القوات الحلبية باتجاه الجنوب لعدم قدرتهم على صد الهجمة المغولية . وبعد أن جاوزوا حماة لحق بهم المنصور الثاني مع جنوده واجتمعوا في حمص ، واتفقوا مع صاحبها على لقاء المغول بظاهرها ، وأعدوا العدة لذلك . وقد تابع المغول زحفهم بقيادة بيدرا ، وازدلفوا إلى وادي الخزندار قرب سلمية ليكون قاعدة لتمرکز قواتهم . ومن هذه القاعدة اندفعت قواتهم إلى حمص ، وجرت بين الطرفين معركة غير متكافئة قرب قبر خالد بن الوليد في الخامس من الشهر المحرم سنة ٦٥٩ هـ ، وكان المغول أكثر عدداً وأضخم عدة ، ولكن صمود الفئة القليلة وإيمانها في الدفاع عن أرضها وحققها في الحياة كانا سبباً في تحقيق النصر وإلحاق الهزيمة بالنكراء بالغزاة الهمج . فكثر القتل والأسر في صفوف المغول ، وفر من سلم منهم إلى قاعدة التمرکز قرب سلمية ، ثم انصرفوا إلى أفامية . غير أن الغارات المتكررة للقوات المقيمة في قلعتها أجبرت المغول على الرحيل في طريق العودة إلى موطنهم في الشرق ، وبذلك أمنت بلاد الشام شرهم طوال عشرين سنة .

توقفت غارات المغول على بلاد الشام بعد هزيمتهم قرب حمص ، وقد أتاح هذا التوقف للظاهر بيبرس سلطان المماليك فرصة التفرغ لقتال الأرمن والصليبيين في المناطق الشمالية والساحلية وذلك بسبب تحالفهم الوثيق مع المغول وتمكينهم من إحكام الطوق على بلاد الشام من الشمال ، في حين كان صليبيو الجنوب - إن لم يكونوا محايدين - يقدمون التسهيلات للقوات المملوكية القادمة من مصر لأغراضهم التجارية التي أضرت بها الهجوم المغولي . ولذا انصرف اهتمام الظاهر بيبرس إلى إيقاع الضربات الموجعة بأعدائه في الشمال والساحل وتقليص ممتلكاتهم فيها .

وقد نجح الظاهر بيبرس ونوابه في حلب وحماة وحمص في تأديب الأرمن وتقليل أظافرهم ، كما نجح في تجريد الصليبيين من بعض حصونهم وتضييق رقعة نفوذهم في الساحل ، وجاء فتح مدينة صفد ضربة قاصمة لهم بعد أن دفع الظاهر بيبرس والمنصور الثاني صاحب حماة ثمن هذا الفتح غالياً .

وبعد وفاة الظاهر بيبرس خلفه ابنه الملك السعيد بركة سنة ٦٧٦ هـ ولكنه سرعان ما خلع ، وجيء بأخيه العادل سلامش في أوائل سنة ٦٧٨ هـ ، ثم أقصي بعد ثلاثة أشهر لصغر سنه وجلس مكانه سيف الدين قلاوون .

وما كاد سيف الدين قلاوون يستقر على عرش السلطنة في مصر حتى أعلن سنقر الأشقر نائب دمشق عصيانه ، ولم يلق عصا الطاعة إلا بعد أشهر من الصراع الدامي ، ومن المؤكد أن أنباء التحرك المغولي باتجاه الشام كان عاملاً هاماً في استعجال الهدنة وتقرير قواعد الصلح بين الطرفين .

الهجوم المغولي الثالث وموقعة حمص الكبرى سنة ٦٨٠ هـ

استأنف المغول نشاطهم العسكري على الأطراف الشرقية والشمالية لبلاد الشام ، وقد اقتضت تحركاتهم على أعمال الكر والفر ، وبخاصة في السنوات الأخيرة من حكم الظاهر بيبرس . ولكن وفاة الظاهر بيبرس وما أعقبها من اضطراع على السلطة دفع المغول إلى المغامرة من جديد لتحقيق حلم هولاكو في ضم الشام إلى ممتلكاتهم ، مستفيدين من انشغال سيف الدين قلاوون في مقارعة خصومه داخل البلاد سنة ٦٧٩ هـ لتوطيد سلطته على الشام عقب حركة سنقر الأشقر . غير أن عيون سيف الدين قلاوون من عرب العراق نقلت إليه أنباء الحشود المغولية الضخمة استعداداً لغزو الشام . فاضطر إزاء الخطر الخارجي أن يتجاوز خصوماته الداخلية جميعها ، ويعمل على تسويتها عن طريق المصالحة ولا سيما مع الذين اتصلوا بالمغول أمثال سنقر الأشقر بعد هزيمته ، ليستطيع الوقوف أمام عدوه الشرس كامل الأهبة ، موحد الصف ، ويحقق لشعبه الأمان بالانتصار على المغول، ويضمن لنفسه المجد والاستقرار على عرش السلطنة .

وما كاد عام ٦٨٠ هـ ينتصف حتى بدأ المغول زحفهم الكاسح إلى الشام

بأعداد كثيفة لم يسبق لها مثيل ، وكان ملكهم أبغا بن هولاكو على رأس هذا الهجوم الكبير . وعندما تكاملت استعدادات سيف الدين قلاوون وتوافدت إليه القوات المصرية والشامية والعرب والتركمان من كل مكان ، تركز على مقربة من حمص ، وشرع في تنظيم قواته الممتدة على منطقة واسعة ، فقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام :

- ميمنة وعلى رأسها المنصور الثاني صاحب حماة .
- وميسرة وعلى رأسها سنقر الأشقر صاحب صهيون .
- وقلب الهجوم وعلى رأسه حسام الدين طرنطاي نائب السلطان .
- ولم يكن تعداد هذا الجيش ليزيد على أربعين ألف فارس .

أما جيش المغول فقد اتجه قسم منه بقيادة أبغا بن هولاكو إلى الرحبة (قرب الميادين) لحصارها ، واتجه الباقيون - وهم الكثرة - إلى حمص بقيادة منكوتمر ابن هولاكو متبعاً سياسة الأرض المحروقة . وعندما اجتازوا حماة أتلفوا بساتينها ودمروا عدداً من أبنيتها ، وقد قدّر أبو الفداء جيش المغول بنحو ثمانين ألف فارس ، خمسون ألفاً من المغول ، والباقي حشود من أجناس مختلفة مثل الكرج والعجم والأرمن وغيرهم ، في حين يقدر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عددهم بنحو مائة ألف أو يزيد .

جيش قلاوون ينتصر على المغول

وفي يوم الخميس رابع عشر رجب سنة ٦٨٠ هـ التحم الفريقان في معركة هائلة على مساحة واسعة من الأرض امتدت من قبر خالد بن الوليد إلى الرستن ، وتكشفت عن هزيمة ميسرة المغول أمام المنصور الثاني صاحب حماة وجنوده ، وهزيمة قلب الهجوم أمام حسام الدين طرنطاي نائب السلطان ، بينما تراجع سنقر الأشقر أمام ميمنة المغول مما أدى إلى وقوع إصابات كثيرة نتيجة التقهقر الكيفي . غير أن ميسرة المغول سرعان ما ارتدت على أعقابها من تلقاء نفسها بعد أن بلغت هزيمة منكوتمر بن هولاكو قائد الهجوم ، فانكفأ المتراجعون خلفهم يقتلون ويأسرون . وقد افترق المغول المنهزمون فرقتين : فرقة أخذت جهة سلمية والبرية ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات . وبذلك تحقق النصر

الكامل لجيش قلاوون على جيش المغول . وقد ذكر ابن تغري بردي أن قتلى المغول لا يحصى كثرة ، بينما كانت خسائر المسلمين دون المائتين .

وإذا كان المؤرخون المعاصرون يعدون موقعة عين جالوت من أهم وقائع العالم الاسلامي ، فلأنها كانت بمثابة السد الذي حال دون وصول المغول إلى مصر ، وأنقذها من التدمير الاقتصادي والحضاري الذي لحق بأرض العراق والشام . وإنني لأرى أن موقعة حمص الكبرى لا تقل من حيث الأهمية عن موقعة عين جالوت ، وربما فاقتها من بعض الوجوه ، فهي من الناحية العسكرية ضمت أكبر الحشود المغولية على أرض الشام ، وقد أربت قواتهم على ثمانين ألف فارس ، وقيل مائة ألف ، في حين لم يزد حجم المغول في عين جالوت عن عشرة آلاف فارس . كما أن هذه الموقعة من حيث النتيجة قد حطمت أحلام المغول في غزو الشام لعشرين سنة على الأقل ، ولا أدل على ذلك من موت منكوتمر بن هولاكو في جزيرة ابن عمر كمدأ بعد شهرين أو يزيد من عار الهزيمة ، فعدّ المسلمون موته من جملة هذا الفتح العظيم - على حد تعبير أبي الفداء - ثم لحق به أخوه أبغا ملك المغول بعد أقل من شهرين ، وتولى الملك من بعده تكو دار ابن هولاكو الذي أظهر إسلامه وتسمى أحمد سلطان ، وكتب إلى قلاوون بذلك وطلب منه الصلح .

الهجوم المغولي الرابع واحتلال دمشق سنة ٦٩٩ هـ

لم يجرؤ المغول على القيام بهجوم واسع النطاق على بلاد الشام بعد هزيمتهم في موقعة حمص الكبرى سنة ٦٨٠ هـ ، وذلك بسبب المصاعب الداخلية التي يعاني منها المغول سياسياً واجتماعياً ، فقد شهدت دولة المغول في ايران بعض النزاعات على السلطة قبل وصول قازان إلى العرش سنة ٦٩٤ هـ ، كما شهدت في السنة نفسها إسلام قازان وانتشار الدين الجديد بين المغول حتى أصبح الاسلام الدين الرسمي لدولة قازان .

وقد نجم عن اضطراب السياسة الداخلية لدولة المغول هجرة طائفة العويراتية سنة ٦٩٥ هـ قاصدين الدولة المملوكية خوفاً من بطش قازان ، ويقدر أبو الفداء عددهم بنحو عشرة آلاف إنسان . وجدير بالذكر أن هؤلاء

الوافدين تفرقوا في أنحاء مصر والشام أيام سلطنة لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨) هـ
فاختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم حتى انصهروا في بوتقة المجتمع العربي ولم
يعد لهم وجود مميز في سائر المناطق التي قطنوا فيها .
كما خرج سلامش حفيد هولالكو عن طاعة قازان سنة ٦٩٨ هـ وكان
نائبه على بلاد الروم (الأناضول) واضطر سلامش بعد إخفاق حركة عصيانه
إلى اللجوء لمصر واستنجاهه بالسلطان لاجين ، مما أثار الحقد في نفس قازان ،
وصمم على غزو بلاد الشام ومصر ، وبدأ يعد العدة لذلك الهجوم الكبير .
وبالمقابل كانت الدولة المملوكية تموج في بحران المنازعات بسبب سوء
العلاقات بين الأمراء والسلاطين . وقد تعاقب على السلطة بين عامي ٦٨٩ -
٦٩٩ هـ خمسة سلاطين ، قتل منهم اثنان ، وخلع اثنان . ونتيجة لهذه
الاضطرابات الداخلية هرب بعض الأمراء المماليك مع أتباعهم إلى المغول
سنة ٦٩٧ هـ بقيادة سيف الدين قبچق مخافة أن يبطش بهم السلطان لاجين
بعدما تناهى إلى أسماعهم رغبته في التخلص من الأمراء المعارضين لسياسته
الداخلية ، والاستعاضة عنهم بأمراء يدينون له بالطاعة والولاء . وقد رحب بهم
قازان وأحسن مثواهم ، وزوجهم بنساء مغوليات فطابت لهم المسرة ، ووجدوا
لتحريضهم إياه على غزو الشام أذناً واعية .

هجوم شامل على بلاد الشام

وما كادت شمس القرن السابع الهجري تؤذن بالأفول حتى قاد قازان
هجوماً شاملاً على بلاد الشام بعد أن سمع أن حكام مصر والشام خارجون عن
الدين غير متمسكين بأحكام الاسلام . فتذرع بالغارة التي شنّها سيف الدين
بلبان الطباخي نائب حلب على ماردین سنة ٦٩٨ هـ ، وما رافق هذه الغارة من
نهب للأموال وانتهاك للحرّمات .

سار قازان بجموع كثيفة من أجناس شتى ، وعبر الفرات ووصل بهم إلى
حلب ، ثم إلى حماة ، ونزل على وادي مجمع المروج قرب سلمية ، ويقدر
عدهم بنحو مائة ألف . وقد أثار عبورهم ومسيرهم مخاوف السكان ، فنزحوا
على عادتهم هاربين من وجه المغول ، وهذا ما اصطلاح المؤرخون على تسميته
بالجفلة .

أما المماليك فقد جهزوا جيشاً قوامه عشرون ألف فارس ، ونزلوا بظاهر حمص دون أن يكتملوا عدة وعدداً ، ثم توجهوا الى مجمع المروج . ولما رأوا عدوهم التحموا به دون راحة من نصب ، عصر يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ . وما هي الا ساعة من نهار حتى ولت ميمنة المماليك ثم تبعتها الميسرة . أما القلب فقد صبر على القتال بعض الوقت ثم مال الى الهرب وبذلك تمت هزيمة المماليك في أول الليل ، ولحق بهم المغول فدخلوا دمشق واحتلوها واستعصت عليهم قلعتها ، ولم تفتح أبوابها طوال فترة الوجود المغولي في دمشق . وأعطى قازان أهل دمشق الأمان ، وأقر سيف الدين قبجق على نيابة الشام كما أقر الأمراء الآخرين الذين تعاونوا معه على نيابة المدن الأخرى .

ويعلل أبو الفداء في تاريخه هزيمة المماليك بقوله : « وكان سلاّر والباشنكير هما المتغلبان على المملكة ، فداخل الأمراء الطمع ، ولم يكملوا عدة جندهم ، فنقص العسكر كثيراً ، مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة التي أوجبت هزيمة العسكر » .

وقد نتج عن هزيمة المماليك وجفلة الناس أمام المغول ثلاثة أمور :

- ١ - غلاء الأسعار وبخاسة في مصر بعد جفلة أبناء الشام ووصول الجنود المنهزمين اليها .
- ٢ - نقض المعاهدة المبرمة بين المماليك والأرمن ، واسترجاع الأرمن لبعض الحصون والبلاد الواقعة جنوبي نهر جيحان .
- ٣ - وقوع حماة تحت حكم عثمان السبيتاري طوال فترة استيلاء المغول على بلاد الشام . ونظراً لأهمية ذلك الحدث بالنسبة الى حماة فقد فصلنا القول قدر المستطاع .

حكم عثمان السبيتاري على حماة

كان ظهور عثمان السبيتاري على مسرح نيابة حماة أمراً متوقعاً عقب الهجوم المغولي الرابع على بلاد الشام ، ويمكن أن نتوقع ظهور من هو أسوأ منه علماً وحكماً بعد هزيمة الجيش المملوكي وجفلة نواب المدن الشامية ومن حولهم من الأمراء والأتباع الى مصر ، وهم يظنون أن الغنيمة في السلامة ، وأن مفارقة الدار خير من مواجهة الأخطار ، تاركين الغالبية العظمى من الشعب

تواجه مصيرها بنفسها ، وليس معها من عدة النصر إلا الصبر تشربه كأساً دهاقاً . وهذا يفسر لنا ظهور عثمان السبيتاري ورفيقه اسماعيل واستيلاءهما على قلعة حماة والمدينة ، وأن يحكما حكماً تسلطياً قهرياً قائماً على السلب والنهب واستباحة المحارم وسفك الدماء .

من هو عثمان السبيتاري

يذكر لنا أبو الفداء في تاريخه أن عثمان السبيتاري من بلاد الشوبك وكان يعمل في خدمة قرا سنقر نائب حماة جندياً . فلما خرج قرا سنقر لقتال المغول مع السلطان الناصر محمد ترك عثمان السبيتاري مع حامية قلعة حماة لحفظها . ولكنه بعد هزيمة المماليك في موقعة وادي المروج استولى على حماة وقلعتها مستعيناً ببعض جنود الحامية وعلى رأسهم رفيقه اسماعيل ، وعاثا في المدينة فساداً . ثم غدر عثمان برفيقه اسماعيل وقتله ، وانفرد بالحكم ، وتلقب بالملك الرحيم ، لكن أهل حماة لم يجدوا فيه الا الشيطان الرجيم بسبب الدماء التي سفكها ، والأموال التي سلبها ، والموبقات التي ارتكبها . حتى ضج الناس من أعماله وآثامه .

ولما خرج المغول من الشام جهر السلطان الناصر بن قلاوون قواته للمسير اليها من مصر بالاتفاق مع نواب قازان الذين كاتبوه وندموا على ما فعلوه ، وأقروا له بالطاعة بعد العصيان . وقد جرت بعض التعديلات في نيابات الشام ، فأبعد قرا سنقر عن حماة الى حلب ، واستقر في نيابة حماة العادل زين الدين كتبغا .

وقد أرسل كتبغا الأمير صارم الدين أذربك الحموي الى حماة ليتولى أمورها ريثما يحضر كتبغا . ولما دخل صارم الدين المدينة أعلن عثمان السبيتاري العصيان وامتنع في القلعة ، ولكن أصحابه تغلوا عنه وفارقوه بعد أن أدركوا أنه لا قبل لهم بمقاومة السلطان منفردين . وبذلك تمكن الأمير صارم الدين أذربك من القضاء على حركة عثمان السبيتاري والقبض عليه وزجه في سجن القلعة بعد أن دامت حكومته على حماة أكثر من أربعة شهور (من ربيع الثاني حتى شعبان سنة ٦٩٩ هـ) .

ولما دخل قراسنقر حماة متوجهاً الى حلب ، شكوا اليه أهل حماة ما فعله عثمان السبييتاري فيهم ، فأطلق سراحه واصطحبه معه الى حلب بعد أن قبل منه رشوة من المال الذي اغتصبه من أبناء حماة مقابل سكوته عنه وحمايته من النائب الجديد . وهكذا نجا عثمان السبييتاري من العقاب ، ولم يمكن قراسنقر أحداً منه ، مع أن قاضي حماة قد حكم بسفك دمه . وبقي عثمان السبييتاري في حلب عزيزاً مكرماً الى أن لجأ قراسنقر الى المغول فاستتر عثمان السبييتاري ولم يظهر .

ويذكر أبو الفداء في تاريخه أنه عندما آلت اليه نيابة حماة تتبع عثمان السبييتاري وطلبه من نائب السلطنة بالشام المقر السيفي تنكز ، فأمسك عثمان من بلاد عجلون ، وأرسله معتقلاً الى حماة ، ونفذ فيه أبو الفداء حكم القضاء ، وضربت عنقه في سوق الخيل بحضرة العسكر يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ٧١٦ هـ جزاء وفاقاً .

الهجوم المغولي الخامس وموقعة مرج الصفر (٧٠٠ - ٧٠٢) هـ

مهد المغول للهجوم الخامس على بلاد الشام بسلسلة من الغارات على شمالها في ربيع الآخر سنة ٧٠٠ هـ بقصد ايقاع الرعب في النفوس إرهاباً لحملتهم الكبرى على مصر . وقد هرب السكان كمادتهم جافلين أمام غارات المغول وتفرقوا في المناطق الساحلية والجبلية . أما القوة العسكرية المملوكية فقد تنادت للتجمع بظواهر حماة التي وصل اليها جند حلب وجند دمشق بانتظار قدوم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي جهز قواته المصرية لمواجهة المغول ، ولكن السلطان لم يتمكن من متابعة المسير الى بلاد الشام بسبب سوء الأحوال الجوية وكثرة الأمطار والثلوج والأحوال فأثر الرجوع الى القاهرة ، واكتفى بإرسال حملة بقيادة الأمير بكتمر السلاح دار الى دمشق .

ولكن اللقاء الحاسم بين الطرفين لم يحدث على الرغم من وصول طلائع المغول الى قرون حماة ، ذلك أن الأمطار والثلوج التي دامت واحداً وأربعين يوماً حالت بينهما ، وأجبرت المغول على الانسحاب .

ويستفاد مما كتبه بعض المؤرخين المعاصرين أن قازان كان يأمل أن يحظى بمساعدة عسكرية من الدول الأوروبية لانتزاع بلاد الشام من قبضة المماليك ، غير أن السفارات التي أرسلها الى ملكي انكلترة وفرنسة عادت:ون أن تحقق أي نجاح . ولما يئس قازان من مناصرة ملوك أوربة له لجأ الى مهادنة المماليك ليتسنى له إعادة بناء قواته العسكرية تمهيداً لاجتياح بلاد الشام .

ومن الواضح أن الهدنة بين الطرفين لم تدم طويلاً بسبب اخفاق مساعي الصلح وعدم وجود دافع حقيقي للسلام ، لأن قازان نفسه لم يكن راغباً في اقامة سلم دائم بسبب مطامعه التوسعية التي لا تنتهي عند نهر الفرات بل هي أبعد مدى من ذلك ، انه يريد إلحاق الشام ومصر بملكه واسقاط الحكم المملوكي . ولم تكن هذه الدوافع لتخفى على السلطان الناصر محمد ، فهو لا يفتأ يعبىء القوى ويستنهض العزائم للموقف الحاسم . وكانت رسل المغول تنقل الى قازان مظاهر القوة والعظمة التي يحيط بها السلطان الناصر نفسه ، وهذا ما دفع بالمغول الى عبور الفرات بأعداد كثيفة قدّرت طليعتها بثمانين ألف مقاتل وكانت بقيادة قطلوشاه .

أعمل المغول في منطقة الفرات قتلاً ونهباً ، ثم بعثوا الى القريتين حملة منذرة أوقعت بالتركان أضراراً بالغة ، وعاد الناس من جديد الى الجفنة المعهودة خوفاً من المغول ، ولكن نائب دمشق نادى في الناس : من خرج فقد حلّ دمه . وأعد المماليك عدتهم للمواجهة .

موقعة الكوم أو عرض

كانت حماة هي مركز التجمع العسكري المملوكي ، وبدأ نائبها زين الدين كتبغا يتهياً لاستقبال القادمين إليها من جند حلب وطرابلس وحمص ، وأحكم النواب الخطة لتطويق القوة المغولية التي أغارت على القريتين فطرقوهم على حين غرة ٠٠ وجاؤوهم من أربع جهات بمنزلة عرض في موقع يقال له : الكوم بين تدمر والرصافة ، وأبادوا القوة المغولية عن بكرة أبيها في العاشر من شعبان سنة ٧٠٢ هـ / آذار ١٣٠٣ م وبقيت أجسامهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض على حد تعبير السلطان الناصر في كتابه إلى قازان ملك المغول . ونترك لأبي الفداء أحد شهود الموقعة أن يصف لنا أحداث الساعة الأخيرة منها .

يقول: «ثم نصر الله المسلمين وولى التتر من هزمين . وترجل منهم جماعة كثيرة عن خيلهم ، وأحاط المسلمون بهم بعد فراغهم من الوقعة ، وبذلوا لهم الأمان فلم يقبلوا ، وقاتلوا بالنشاب ، وعملوا سروج الخيل ستائر لهم . وناوشهم العسكر القتال من الضحى حتى انفراكَ الظهر ، ثم حملوا عليهم فقتلوه عن آخرهم » . وكان هذا النصر عنوان النصر التالي .

موقعة مرج الصفر

غيط قطلوشاه قائد المغول من الهزيمة النكراء التي لحقت بقواته في موقعة الكوم ، فقرر الانتقام من جيش الشام قبل وصول الجيش المصري بقيادة السلطان الناصر . وما هي إلا أيام لاتجاوز العشرة على انتصار المماليك حتى كان المغول في أطراف حماة، في حين حدثت الجفلة من جديد . أما قوات المماليك فقد سارت باتجاه دمشق ، وكان كتبغا نائب حماة مريضاً ، فحمل على محفّة ، وطلب من أبي الفداء المؤرخ المعروف أن يتأخر في حماة ليستطلع أخبار المسيرة المغولية . يقول أبو الفداء في تاريخه : « فلما شاهدت جموعهم ونزولهم بظاهر حماة ، وكنت واقفاً على العليليات سرت من وقتي ولحقت بزين الدين كتبغا بالقטיפه وأعلمته بالحال .

وعندما وصلت القوات المملوكية إلى دمشق اختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء المغول أو انتظار قدوم السلطان الناصر ، غير أنهم خافوا من مفاجأة المغول فغادروا دمشق إلى ظاهرها ، واجتمعوا بطلائع القوات السلطانية القادمة من مصر في مرج الزنبقية على مقربة من دمشق . وقد أحدث خروجهم من دمشق هلعاً لاحد له في نفوس السكان ، فضج الناس بالدعاء إلى رب السماء لانقاذهم من براثن المغول ، ولكن المغول لم يدخلوا المدينة ، وإنما نزلوا الغوطة طلباً للراحة بعض الوقت ، ثم لحقوا بالمماليك الذين رأوا من الصواب المسير إلى مرج الصفر أملاً بلقاء السلطان الناصر . وقد اتفق وصول المغول إلى مرج الصفر مع وصول السلطان والخليفة المستكفي بالله ، والمغول لا يعلمون من أمر وصولهم شيئاً .

قام السلطان المملوكي بتوزيع قواته إلى ميمنة وميسرة وقلب الهجوم .

وكان على رأس القلب السلطان والخليفة وكبار القادة ، بينما كان على رأس الميمنة الأمير لاجين الاستادار ومعه الأمير قبجق على جند حماة والعربان وجماعة من الأمراء ، ووقف على الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش مع عدد من الأمراء .

أما المغول فقد اتبعوا نظام الكراديس ، وهو الأسلوب القتالي الذي ألف المغول اتباعه في سائر مواقعهم ، حيث تقوم كتائب فرسانهم بهجمات على الجيش المقابل ميمنة أو ميسرة .

وقبل أن يحين الصدام وقف السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة ، وقد حذر السلطان من التراجع أو الفرار وقال يخاطب الجنود: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه .

ولما أنجز الفريقان استعداداتهم للقتال التحموا عصر يوم السبت ثاني رمضان سنة ٧٠٢ هـ واستحر القتال بينهم حتى عصر اليوم التالي حين انجلى الموقف عن هزيمة ساحقة لحقت بالجيش المغولي كان حصادها آلاف القتلى والجرحى والأسرى .

وقد جد المماليك في أعقاب المنهزمين حتى القريتين ، فمن لم يدركه الموت في غمرة المعركة على أيدي المقاتلين أدركه في غمرة الهزيمة على أيدي سكان المدن والأرياف وعرب البادية . ومن نجا من القتل بالسيف لم ينج من الموت غرقاً في الفرات أو جوعاً في مهاوي البادية ، ولم يسلم من جيش المغول سوى قلة لا تتجاوز واحداً من عشرة .

وكان لهذا النصر الكبير الذي حققه عرب الشام ومصر على المغول نتائج هامة داخل المنطقة العربية وخارجها ، ويمكن إجمالها بما يلي :

١ - أحدثت هزيمة المغول ضجة كبرى في ديارهم ، فقد عمت المناحات كل مكان على الأعداد الهائلة من القتلى والأسرى . ويذكر ابن تغري بردي أن النياحة في تبريز وحدها دامت شهرين ، كما يذكر أبو الفداء أن قازان ملك المغول قد مات مهموماً محموماً من جراء الهزيمة على مرج الصفر بعد سنة من النصر المبين . وقيل : انه مات مسموماً نتيجة مؤامرة دبّرت لخلعه بسبب مساوئ حكمه .

٢ - استرد الممالك ثقتهم بانفسهم في قدرتهم على رد الهجمات المغولية الضارية ، كما استردوا ثقة السكان في بلاد الشام بصورة خاصة بعد أن أُرعبتهم شدة الغارات وكثرة الجفلات وهذا ما دفع السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى توجيه كتاب الى قازان ملك المغول يطلب منه الجلاء عن العراق •

٣ - انحسرت هجمات المغول عن بلاد الشام بعد موقعة مرج الصفر ، واكتفوا بغارات محدودة ليست بذات شأن ، ويمكن القول ان الهجوم المغولي الخامس كان الفصل الأخير من تاريخ الصراع المغولي المملوكي الذي دام قرابة نصف قرن من الزمن •



المصادر والمراجع

أ - المخطوط :

١ - ذيل مفرج الكروب في اخبار بني أيوب : علي بن عبد الرحيم كاتب المملكة المظفرية بحمأة [نسخة مصورة عن نسخة باريس وقد أنجز كاتب البحث تحقيقها مؤخرًا] •

ب - المطبوع :

- ١ - البداية والنهاية (الجزءان الثالث عشر والرابع عشر): ابن كثير الدمشقي (٧٧٤) هـ - الطبعة الثانية ١٩٧٧ •
- ٢ - تاريخ التمدن الاسلامي (المجلدان الثاني والرابع) جورجي زيدان - الطبعة المصرية •
- ٣ - تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي (٩١١) هـ - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر •
- ٤ - جنكيز خان قاهر العالم : رينيه غروسيه - ترجمة خالد أسعد عيسى •
- ٥ - خطط الشام (الجزء الثاني) : محمد كرد علي - طبعة مكتبة النوري بدمشق •
- ٦ - دولة بني قلاوون في مصر : محمد جمال سرور - القاهرة ١٩٤٧ •
- ٧ - الظاهر بيبرس: د. سعيد عبدالفتاح عاشور - سلسلة اعلام العرب رقم ١٤ •
- ٨ - العالم الاسلامي في العصر المغولي : برتولد شبولر - ترجمة خالد أسعد عيسى •
- ٩ - الغزو المغولي للبلاد الاسلامية : حسن الامين •
- ١٠ - العلاقات السياسية بين الممالك والمغول : فايد حماد عاشور - دار المعارف بمصر ١٩٧٦ •
- ١١ - المختصر في اخبار البشر (الجزءان الثالث والرابع) : عماد الدين ابو الفداء (٧٣٢) هـ - الطبعة المصرية •
- ١٢ - معجم الأسر الحاكمة (الجزء الثاني) : أحمد السعيد سليمان - دار المعارف بمصر •
- ١٣ - الناصر محمد بن قلاوون : د. محمد عبدالعزيز مرزوق - سلسلة اعلام العرب رقم ٢٨ •
- ١٤ - النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة (الجزءان السابع والثامن) : جمال الدين بن تغري بردي (٨٧٤) هـ - وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر •